ســـــعدى التميمية *

للأســـتاذ نجاتى صدقى

لقد شـغل هذا الحادث قبيلة بنى تميم الضاربة خيامهـا على ضفتى الدجلة ردحاً طويلا من الزمن ، ولم يهدأ لها بال إلا بعد أن دفع الثمن ؛ وكان غالياً .

ولهذا الحادث صلة متينة بالحب البدوى . . والحب البدوى أعنف من الحب الحضرى لأنه يقوم على الطبيعة البشرية المجردة فى حين أن الحب الحضرى تشوبه عناصر غريبة من المـادة والاجتماع والرياء .. وهكذا صار للحب البدوى ملكه ، وصار للحب الحضرى شيطانه .

وزار مرة ملك الحب بيت (سركال) [1] من بنى تميم ، وصوّب السهم إلى قلب الفتاة سعدى وحيدة أبويها فترنحت وسقطت أسيرة الهوى البرىء .

ولسوء طالع سعدى أن يكون فتاها محسن غريباً عن قبيلة بنى تميم التى لا تبيح لأحد من غير قبيلتها أن يتزاوج من فتياتها ؛ فتشـاور الفتى والفتاة فى الأمر ، واتفقا على الفرار ، فرحلا إلى بغداد وسكنا فى كرادة زوية ، وهى ضاحية من ضواحى العاصمة تقع على ضفة الدجلة الشرقية ، تحيط بها حدائق غناء ، وأحراج من النخل الباسقات الشبيهات بسرب من الصبايا الرشيقات

وإذ كانت سعدى تتقلب بين ذراعى حبيبها وتشعر فى جواره أنها أسعد فتاة فى قبيلتها . كان أبوها يقلب (الدلة) مقسماً بأغلظ الأيمان ألا يقدم لأحد قهوة حتى يمحو العار الذى لصق به وبقبيلته .

والقلب (الدلة) عنـد بنى تميم منزاه . . فالدلة حى أريق القهوة ، وإذا ما أراد أحدهم أن يثأر لنفسـه قلب أريق القهوة راسماً على عقب ، وتركه مقلوباً إلى أن ينال بغيته .

وبعـد ثلاثة أشهر أفاقت سعدى من سكرة الحب ، وأخـذ ضميرها يؤنبها على فعلتها الشنيعة ، وراحت تتصور ما يلاقيه أهلهـا فى القبيلة من عار ومذلة ، بل ما تلاقيه القبيلة كلها من مهانة واحتقار بين القبائل المجاورة ، فارتبكت وجعلت تفكر فى مخرج من هذه الكارثة . وللبدوية فى حالة كهذه أحد طريقين لا ثالث لهما : إما الاستمرار فى الغىّ أو الاستسلام ، وكلا الطريقين محفوف بالمخاطر .

أتعود إلى أبيها وتجثو على قدميه تسأله الرحمة والمغفرة ، أم تواصل حياتها السعيدة إلى جانب شقيق روحها محسن ؟

أتعود إلى أبيها وترفع عن كاهله وعن كاهل بنى تميم كلهم عبئاً معنوياً ثقيلا ، أم تظل مع (وافها) تبادله هـذه الهنوات اللذيذة فى العاطفة والأعصاب التى يطلق عليها الناس اسم الحب.

و (الدلة) أتظل طويلا مقلوبة ؟ .

لاتدرى سعدى كيف انسلت فى صباح أحد الأيام من فراش حبيبها ، وهو يغط فى نومه ، وخرجت تتعثر فى أذيالها ، ووجهتها بغداد .

وفى عاصمة الرافدين لجأت إلى بيت أحد الوجهاء من معارف أبيها بمثـابة (دخيلة) فقبلها الوجيه مع ما فى ذلك من متاعب لا حصر لها .

و (الدخالة) من العادات البدوية القديمة الجميلة ، ولا تزال متبعة فى العراق حتى أيامنا هذه .

قالت سعدى للوجيه البغدادى : أنا (دخيلة) عليك ؟ . فرحب بها ، ثم عهد إليها أمر العناية بأطفاله إلى أن تتم وساطتها مع أهلها .

وقضت سعدى (دخيلة) مدة ستة أشهر ، والوجيه لا يألو جهداً فى الوساطة لدى أبيها .. غير أن هذا كان يأبى دائماً أن يمد الوجيه بشىء ، وكان يطالب بأن تسلم ابنته نفسها دون قيد أو شرط .. أو كما قال للوجيه مرة : « لقد خرجت قضية سعدى من يدى ، فالقبيلة هى التى تقرر مصيرها . . وما أنا فى مثل هذا الظرف إلا منفذ لرغبة بنى تميم » .

(*) أذيعت من دار الإذاعة الفلسطينية بالقدس .

(١) السركال : هو مالك صغير يستخدم عدداً من الرعاة والمزارعين

وظلت (الدلة) مقلوبة كما كانت منذ تسعة أشهر .

أما سعدى ، فكانت تعنى بأطفـال الوجيه ، وتقص عليهم القصص اللطيفـة ، التى تتحدث فيهـا عن الغزلان ، والإبل والسراب ، والعواصف الرملية ، والرياح السموم ، والقفار الوعرة والواحات النضرة . . كما كانت تغنى لهم أغانى تذكر فيها الدجلة والفرات ، والنيام ، وليالى بغداد ، ونسيمها العليل ، ونجومها الساطعة .

واستمرت الوساطة ، ولـكن دون جدوى ، وظلت (الدلة) مقلوبة .. وغدت عينا سعدى محمرتين مثـل الجمر من قلة النوم ، وكثرة البكاء ، فهى لم تظفر بعطف أبيهـا وخسرت حبيبها الذى خيل إليه أن ذويها اختطفوها ، وقطع الأمل من رؤيتها أو الاجتماع بها إلى الأبد .

ولما رأى الوجيه أن لا فائدة من الوساطة ، وأن من الخطر إبقاء سعدى فى بيته أكثر مما بقيت ، عقـد النية على نقلها إلى بيت منعزل فى حى (الـكاظمين) ولأهلها أن يأخذوها من ذلك البيت إذا أرادوا وليس من بيته . . وبذلك يصبح فى حل من مسئولية (الدخالة) الأدبية . .

وغادرت سـعدى بيت الوجيه وهى تعانق أطفاله وتغسل وجناتهم بدموعها ، فيسألونها متألمين: إلى أين أنت ذاهبة ياسعدى؟ كيف تتركيننا ؟ ومن الذى سيقص علينا القصص الجميـلة ، ويغنينا الأغانى العذبة ؟ .

فتجيبهم بـكلمات لم يفقهوا لها معنى . إنى ذاهبة لأرى ما قدر لى ، وما كتب على جبينى .

ومـكثت سعدى فى ذلك البيت المنعزل فى الـكاظمين ثلاثة أيام تنام على الحصير ، وتتغذى بالخبز والماء .

وكانت فى هذه الأيام الثلاثة لاتنفك تغنى هذه الأغنية الشعبية:

هـلى يا ظـلاّم هـلى
جيبـــوا لى ولفى إلى
خايبين يا ظـلاّم
ترى الفركة چـوت
قلبى چوى

***

لا يا هلى الظـلاّم
لا رحم عـــدّكم
جيبـوا لى ولفى عاد
موش أنـــا بنـكم ؟
لا يا هلى الظـلاّم
مـــا كو مروّه
جيبـــوا لى ولفى عاد
قلبى تجوه

جيت ولقيت الدار
خالى من الأحباب
صين دموع العين
يم عتبـــة البـــاب

وفى فجر اليوم الرابع طرق سمع سعدى وقع أقدام وصرير مفتاح ... وهمهمة ودمدمة .. فانتصبت مذعورة ، فرأت نفسها وجهاً لوجه قبالة أبيها ، وأشقائها ، وممثلين عن قبيلة بنى تميم .

أدركت سعدى لساعتها ما صمم القوم عليه ، فجثت تبكى ، وتطلب العفو . لـكن يداً قوية أخذتها من ناصيتها ، ويداً أخرى أقوى أخذت تسلبها النفس . وكانت فى حشرجتها الأخيرة تقول إننى عذراء . . إننى عذراء ! . .

وفى مساء ذلك اليوم أشيع فى قبيلة بنى تميم أن أبا سعدى عدل (الدلة) ! .

نجاتى صدقى

دار النشر للجامعات المصرية

١٦ شارع عدلى باشا . ت — ٤٠٩٩٥

أغراضها

العناية بنشر المؤلفات العلمية والفنية والتى يقصد بها غالباً الثقافة الجامعية والدار تقصر عنايتها مؤقتاً على نشر المؤلفات الخاصة بالعلوم القانونية والاقتصادية والسياسية وقد اتفقت الدار مع بيوت النشر الفرنسية الـكبيرة المتخصصة فى المؤلفات القانونية والاقتصادية على تمثيلها فى القطر المصرى .